مجلة أنثروبولوجية الأديان المجلد 19 العدد02 2023/06/05

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

البعد الأنثروبولوجي الديني في الفكر الحداثي– نقد أرخنة أسباب النزول أنموذجا–

The religious anthropological dimension in modernist thought - Criticism of the Arkhna Asbab al-Nuzul as a model-

طلحة سمية*

جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان، الجزائر

Udamha13000@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2023/01/04 تاريخ القبول: 2023/02/09

ملخص:

تهتم هذه الدراسة بالكشف عن مدى تأثير العامل الأنثروبولوجي في فهم التدين عند أهل الحداثة، الذين أماطوا عن نصوص الوحي صبغة القداسة، وأخضعوها لذات المناهج التي تسقط على المعارف الانسانية، ليتولد عن ذلك تأويلات خارجة عن نطاق المتعارف عليه مستندها تحريفات تاريخية، وأظهر العلوم الاسلامية الكاشفة عن ذلك علوم القرآن الكريم وفي مقدمتها علم أسباب النزول.

وقد فندت الدراسة دعوى الحداثيين في وجود مشروع لدراسة التّراث الإسلامي، كما أبانت الانفصام بين النصّ والواقع إذ يرون أنّ النص القرآني ينحصر تطبيقه على سبب وقوعه، وعليه تكون الأولوية لهذا الواقع على النصّ، إضافة إلى أنّ أسباب النزول بمعناها الحداثي إمكانية اختيار مانراه الأنسب لحلّ مشاكلنا من الوحي دون أن نلتزم بالأخذ بأحكامه كلّها. وأن الحداثة هي مجرّد غطاء يمرّرون به أفكارهم حول الدّين والوحي وأحكام الشّريعة مع العمل على إفضاء طابع المشروعية وتهيئة الأذهان لقبولها.

الكلمات الدالة: التاريخانية، الفكر الحداثي، البعد الأنثروبولوجي، أسباب النزول، علوم القرآن.

Abstract:

This study is concerned with revealing the extent of the influence of the anthropological factor in the understanding of religiosity among the people of modernity, who have suppressed the sacredness of the texts of revelation, and

*المؤلف المرسل: طلحة سمية، الايميل: Udamha13000@gmail.com

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

subjected them to the same approaches that fall on human knowledge, to generate interpretations that are outside the scope of the accepted, based on historical distortions, and revealed the revealing Islamic sciences. The sciences of the Holy Qur'an, foremost among which is the science of the causes of revelation.

The study refuted the claim of the modernists in the existence of a project to study the Islamic heritage.

Keywords: Historicism; modernist thought; anthropological; Quran Sciences.

مقدمة:

إنّ تعاطي الفكر البشري مع المعطيات الوجودية أفرز عدة توجهات فكرية وفلسفية أريد بها بلوغ تفسيرات علمية لمخرجات المعرفة الإنسانية، غير أنّ هوس بعض المعاصرين بدعوى التحرر من التعصب والجمود دفعهم إلى تقمصالتجربة الغربيةالمتحررة من الفهم الكلاسيكي للدين ما غير إطار المباح والمحظور وفق تأويلات حاقدة، ومع دخول الأنثروبولوجيا مجال القرن العشرين بأحداثه وتغيراته العلمية، طرأت عليها تغيّرات في منهج دراستها.

الأمر الذي ألب الحداثيينعلى استنساخ التجربة الغربية ومحاولة تطبيقها على الأصول الإسلامية بدعوى بعث الجدة في قراءة القرآن الكريم وعلومه، وإن أظهر ما يتجلى فيه مغايرة الطرح الحداثي للتصور السائد للدين أسباب نزول القرآن الكريم والتي تعتبر نقطة مفصلية في فهم الإشكاليةالآتية: ما حقيقة انتقال التدين من القداسة إلى الأنسنةفي الفكر الحداثي؟، وما أثر التفسير التاريخاني في ذلك؟، وما موضع علم أسباب النزول من كل هذا؟ .

وتهدف هذه الدراسة بالدرجة الأولى إلى الكشف على ارتكاز الفكر الحداثي على العامل الأنثروبولوجي في مختلف تأويلاته وتفسيراته، بالإضافة إلى بيان العامل التاريخاني من كل ذلك وتجلياته على الوحي عموما وعلى علم أسباب النزول بشكل أخص.

المطلب الأول: نصوص الوحي بين القداسة والطرح الحداثي

إن التباين الصارخ بين التصور المعهود للتدين والوحي عند عموم المسلمين والذي يتسم بالقداسة والسمو، والتصور الحداثي الذي لا يفرق بين الوحي والمعرفة الإنسانية، ويخضعه لنفس مناهج النقد دون

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

اعتبار الخصوصية، يحيل إلى ضرورة الكشف عن العامل الأنثروبولوجي الذي صنع هذا البون الشاسع، ومكانة المنهج التاريخانيكمرتكز ابستيمولوجي عند الحداثيين.

الفرع الأول: أثر العامل الأنثروبولوجي في الفهم المغاير للوحي عند الحداثي

ثمة من يردّ بدايات تاريخ الأنثروبولوجيا إلى العصور القديمة، إلاّ أنّ الأنثروبولوجيين الغربيين يرون أنّ الأصول النظرية الأساسية لعلم الأنثروبولوجيا ظهرت إبّان عصر التّنوير في أوروبا (عصر النّهضة الأوروبية)، حيث تمّت كشوفات جغرافية وثقافية لايستهان بها، لمجتمعات مختلفة خارجة عن قارة أوروبا، قدّمت هذه الكشوفات معلومات هامّة عن الشّعوب القاطنة في تلك البلاد، أدّت إلى تغييرات جذرية في الإتّجاهات الفلسفية السّائدة أنذاك، عن حياة البشر وطبيعة المجتمعات الإنسانية وثقافتها، ممّا أدّى إلى تطوير المعرفة الأنثروبولوجية واستقلالها عن دائرة الفلسفة الاجتماعية. (**الشماس، مدخل إلى علم الإنسان الأنثروبولوجيا،2004، صفحة 8**).

ومن أهم الأدلة على غلبة الفهم الأنثروبولوجي عند الحداثيين سيطرة التفسير التاريخاني، وقد وُصفت التّاريخانية على أنّها من أعظم الثّورات التي شهدها الفكر الغربي، وتعود بوادر هذا المصطلح إلى منتصف القرن الثامن عشر ، وقد عرّفت بطرق متعدّدة، كان هدفها اكتساب التّاريخانية ثوبا جديدا غير ما كانت عليه في السّابق ذات طابع روحي وفلسفي، وقد حاول التّاريخانيون الأوائل، إبراز أهمية البعد التّاريخي في دراسة الظّواهر المختلفة جاهدين سعيا بأن تُقدّم للتّاريخ مكانة تضاهي مكانة العلوم الطّبيعية، والتّأكيد على دور علم التّاريخ في تفسير الظّواهر، ذلك أنّ تفسير النّصوص لايكون خارجا عن الظّروف التّاريخية المحيطة به(**العروي، مفهوم التاريخ،2005، الصفحة 235**)، وأمّا عن حضور مصطلح التّاريخانية إلى النّصوص الدّينية فالتّاريخانية عرفت طريقها إلى العالم الإسلامي أواخر القرن الماضي، مع ظهور بعض المفكّرين الذين تبنّوا الطّرح التّاريخاني وإسقاطه على النصّ الدّيني خصوصا، كان لكلّ واحد منهم تعريفه وفهمه وتطبيقه الخاص، ومن أبرزهم: عبد الله العروي، محمد أركون، نصر حامد أبو زيد، هشام جعيط، وغيرهم.

كتب المؤرّخ الألماني فريديريشمينكه (ت 1954) مؤلفا جامعا وصف فيه مراحل ماأسماه بالنزعة التّاريخانية (هيسطوريسموس) التي تمثّل في نظره الشّعور بأنّ الحوادث البشرية فريدة ومتطوّرة، الكلمة من إبداع كارل فونر (1879) لتعريف فلسفة فيكو الذي أكّد أنّ العقل البشري لايدرك إلاّ مايصنع، أي تلك المنشآت التي تكوّن العالم التّاريخي.(**العروي،2005، الصفحة 347**)

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

أما المفكر الألماني كارل بوبر فيعرفها قائلا:" التّاريخانيةhistoricism طريقة في معالجة العلوم الاجتماعية تفترض أن التنبؤ التاريخي هو غايتها الرئيسية، كما تفترض إمكان الوصول إلي هذه الغاية بالكشف عن القوانين والاتجاهات والأنماط أو الإيقاعات التي يسير التطور التاريخي وفقا لها". (**كارل بوبر، بؤس الأيديولوجيا، 1992، الصفحة13**)

الفرع الثاني: التاريخانية مرتكز ابستيمولوجي في الفكر الحداثي

تعتبر التاريخانية**Historicisme** أهم النظريات الابستيمولوجية الحداثية وإن كانت تلتقي مع التّاريخية في المبدأ والنتائج، أو بالأحرى هي النسخة المحدثة للتّاريخية، ومن الأوائل الذين أدخلوها للعالم الإسلامي العروي الذي عرّفها بأنها :"فلسفة كلّ مؤرّخ يعتقد أنّ التّاريخ هو وحده العامل المؤثّر في أحوال البشر، بمعنى أنّه وحده سبب وغاية الحوادث ".(**العروي،2005، الصفحة 349**)

وأصبحت أهم الآليات التي هالت أهل الحداثة حتى أخضعوا لها أصول الشريعة، وقد اشتهر محمد أركون ونصر أبو زيد بهوسهما بهذه النظرية، ويفضل أركون استخدام التاريخية ويفصل بينها وبين التاريخانية، على اعتبار أن التاريخانية هي التي تقول بأن كل شيء أو كل حقيقة تتطور مع التاريخ وتهتم بدراسة الأشياء والأحداث من خلال ارتباطها بالظروف التاريخية، ويرى أركون بأنه يجب تجاوز هذا المعنى إلى " التاريخية " التي تسمح وحدها بتجاوز الاستخدام اللاهوتي أو القومي، وبشكل عام الأيديولوجي للتاريخ.

والتاريخية بشكل عام هي: نسق منظومي يحاول أن يخضع النصوص لتصبح قضية تفسيرية أو تأويلية على أساس أن الحقيقة تاريخية، بمعنى أنها تتصف بالنسبية التاريخية، أي إنها تتطور بتطور التاريخ والمجتمعات، وعرف أركون التاريخية بأنها "تحول القيم وتغيرها بتغير العصور" أي أن القيم لم تعد تنطلق من الحقيقة الثابتة كالنص الديني، إنما مرجعها إلى التطور التاريخي والمجتمعي التي تفرضه اللحظة الزمنية، متساوقا في ذلك من نيتشة، – الفيلسوف الغربي القائل بموت الله، كناية عن موت القيم – وهو ما يحاول محمد أركون أن يجعله منطقاً في نقده للعقل الإسلامي الذي يتمحور على مهمة "أنسنة القرآن" أي جعل القرآن مصدراً بشرياً لا مصدراً ربانياً، بمعنى أن تتحول العلاقة بين الإنسان "المسلم" والقرآن من علاقة ما بين الخالق والمخلوق إلى علاقة ما بين الإنسان والإنسان، فالإنسان هو محور الكون ومصدر الثقافة وصاحب القرار فيه.(**محمدأركون،نقد العقل الاسلامي، 1991، الصفحة103**)

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

يتّضح ممّا سبق أنّ مصطلح التاريخانية يعتبر أنّ التّاريخ وحده مبدأ تفسير كلّ الظّواهر المرتبطة بالإنسان حتّى الدّيانات، عن طريق شروطها التّاريخيّة، وهو ما ينفي الغيب والوحي والرّسالات، وبحسب هذا المذهب لانستطيع الحكم على الأفكار والحوادث إلاّ بنسبتها للوسط التّاريخي الذي ظهرت فيه، وعلى هذا توضع في إطار المعالجة والرّؤية الموضوعية لتركيبها، وقد طبّق هذا المنهج أهل التخريب العقدي على الإسلام، ويعنون به فهم الإسلام في حدود الحقبة الزمنية التي ظهر فيها، وفي ضوء البيئة الاجتماعية والثقافية التي عمل عبرها؛ مع التأكيد على نسبية وعدم اتساع قواعده ومفاهيمه لتطبق على حقب زمنية لاحقة، وهذا ماينفي عالمية القرآن، وبالطّبع فبما أنّ اعتبارهم أنّ التّاريخانية منهجا في فهم النصّ الدّيني، هذا المنهج له آلياته الخاصّة به في فهم هته النّصوص.

المطلب الثاني: التصور الحداثي لأسباب النزول– عرض ونقد

المعلوم أنّ القرآن الكريم هو معجزة الإسلام الخالدة التي لا يزيدها التقدم العلمي إلا رسوخًا في الإعجاز، أنزله الله على رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم ليُخرج الناس من الظلمات إلى النور، ويهديهم إلى الصراط المستقيم، وتحدى به عليه الصلاة والسلام العرب، وقد نزل بلسانهم، وهم أرباب الفصاحة والبيان، فعجزوا عن أن يأتوا بمثله، وكتب الله له الحفظ والنقل المتواتر دون تحريف أو تبديل، وهو المتعبّد بتلاوته.(**القطان، مباحث في علوم القرآن، 2000، الجزء1 الصفحة14**)

غير أن الحداثي يعتبر القرآن الكريم مجرد ظاهرة لها قابلية لتعدّد الأفهام والتّأويلات، وجعلوا النصّ القرآني غير مفارق للواقع وهذا يعني لزاما عدم تعاليه عليه، بل نفي تنزيله من ربّ العالمين، وهذه بعض تعريفات الحداثين للقرآن:

يقول محمد عابد الجابري: القرآن الظاهرة القرآنية، ويضيف: إذا أردنا أن نقدّم تعريف للقرآن بمجرد الإشارة إليه كما نشير إلى الأشياء المألوفة المشهورة قلنا إنّه هذا النص الذي يقرؤه المسلمون ويكتبونه في مصاحفهم.(**الجابري، مدخل إلى القرآن الكريم، 2006، الجزء1، الصفحة:17**).

وتناول حنفي القرآن الكريم ضمن مشروعه التّراث والتّجديد على أنه ثراث أمة من الأمم، وهو بنظر أبوزيد نصر حامد نصّ لغوي يمثّل تاريخ ثقافة عربية،وعليه فالنصّ عنده منتج ثقافي يمثّل بالنّسبة للقرآن مرحلة التكوّن والاكتمال، وهي مرحلة صار النصّ بعدها منتجا للثّقافة، فالعلاقة بين النصّ والثّقافة علاقة جدلية معقّدة تتجاوز كلّ الأطروحات الأيديولوجية في ثقافتنا المعاصرة عن النصّ، فوظيفة النصّ في اللّغة

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

هي وظيفة إعلامية بوصف النصّ رسالة لا تنفصل عن النّظام اللّغوي الذي تنتمي إليه، ومن ثمّ لا ينفصل عن مجال الثّقافة والواقع.(**أبو زيد، مفهوم النص دراسة في علوم القرآن، الصفحة9**)

فجلّ تعبير الحداثيين عن القرآن أنّه ظاهرة إنسانية نازعين عنه القداسة، وهنا تكمن دعوة الخطاب الحداثي وحرصه الشّديد على توظيف التّاريخية، كآلية من آليات القراءة ومساءلة النصّ التي تعتمدها القراءة المعاصرة في مجال النص الديني خصوصا(**العمري، إشكالية تاريخية النص الديني،2012 ، الصفحة12**).

والنّظر إلى علاقة المفسّر بالنصّ، لا في النّصوص الأدبية فحسب، بل في إعادة النّظر في التراث الدّيني حول تفسير القرآن منذ أقدم عصوره حتّى الآن، لنرى كيف اختلفت الرؤى، ومدى تأثير رؤية كلّ عصرمن خلال ظروفه للنص القرآني، ونرى دلالة تعدّد التّفسيرات في النص الدّيني والنص الأدبي معا، على موقف المفسّر من واقعه المعاصر، أيّا كان ادّعاء الموضوعية الذي يدّعيه هذا المفسّر أو ذاك.(**العمري، إشكالية تاريخية النص الديني،2012 ،الصفحة49**).

الفرع الأول: حقيقة علم أسباب النزول قبل وجود الطرح الحداثي

يُعتبر علم أسباب النّزول من أهمّ علوم القرآن الكريم، إذ يقصد به ما نزلت الآية أو الآيات متحدثة عنه أن مبينة لحكمه أيام وقوعه. والمعنى أنه حادثة وقعت في زمن النبي صلى الله عليه وسلم أو سؤال وجه إليه فنزلت الآية أو الآيات من الله تعالى ببيان ما يتصل بتلك الحادثة أو بجواب هذا السؤال(**الزرقاني،مناهل العرفان،2012 ، الجزء1 الصفحة106**).

فمعرفة أسباب نزول آي القرآن عند جمهور المسلمين من أجلِّ علومه وأشرف مقاصدها؛ لأنه يعين على فهم معناها، ولهذا فقد أشكلت آيات على بعض الصحابة فمن دونهم حتى استبان لهم سبب نزولها؛ كقوله تعالى: {وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ} [البقرة: 195]، فقد وضّح لهم أبو أيوب الأنصاري – رضي الله عنه– سبب نزولها، فعرفوا تفسيرها، فاستبان لهم معناها، وقد أفرده بالتصنيف جماعة أقدمهم علي بن المديني شيخ البخاري ومن أشهرها كتاب الواحدي وقد اختصره الجعبري فحذف أسانيده ولم يزد عليه شيئا وألف فيه شيخ الإسلام أبو الفضل بن حجر كتابا مات عنه مسودة وقد ألف السيوطي فيه كتابا حافلا موجزا محررا لم يؤلف مثله في هذا النوع كما قال عنه الإمام نفسه، سمّاه: "لباب النقول في أسباب النزول ".

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

ولا حصر لفوائد هذا العلم الجليل، إذ يعرف به وجه الحكمة الباعثة على تشريع الحكم، ويخصص الحكم به عند من يرى أن العبرة بخصوص السبب، والصّحيح أنّ العبرة بعموم اللّفظ لا بخصوص السّبب.

كما أنه يمكن أن يكون اللّفظ عاما ويقوم الدّليل على تخصيصه، فإذا عرف السّبب قصر التّخصيص على ماعدا صورته، فإن دخول صورة السبب قطعي وإخراجها بالاجتهاد ممنوع، ومن الفوائد أيضا إزالة الإشكال، بالوقوف على المعنى، فبيان سبب النّزول طريق قوي في فهم معاني كتاب الله.(**السيوطي،الاتقان في علوم القران،1974، الجزء 1،الصفحة108**).

الفرع الثاني: أسباب النّزول في الفكر الحداثي

إذا كانت مباحث علوم القرآن ذات شأن خطير، فإن علم أسباب النّزول من أهمّ هته المباحث ومن أبرز موضوعاتها، ومعلوم أنّ أسباب النزول وُظّفت لفهم النصّ وبيان معناه كما أشرنا، ولاإشكال في توظيفها لتحصيل تلك الفوائد، بينما الفكر الحداثي عطّل وفرّغ النصّ من كلّ معاني الهداية، وتوظيفهم لأسباب النزول كان هدفه إثبات آرائهم الفاسدة كالتّاريخانيةوالأنسنة، ووقتية الأحكام الشرعية، انطلاقا من النصّ التي تعدّدت أنساقه التّاريخيّة المكانية والزمانية، وسنرى المقاربة القرآنية لأسباب النّزول في الفكر الحداثي من خلال مفهوم سبب النّزول عندهم، فالتّمسّك بعموم اللّفظ وإهدار خصوص السبب في كلّ نصوص القرآن كما يزعمون من شأنه أن يؤدّي إلى نتائج يصعب أن يسلّم بها الفكر الدّيني ومنها إهدار حكمة التدرّج في التّشريع في قضايا الحلال والحرام خاصة في مجال الّطعمة والأشربة.(**أبو زيد،مفهوم النص،الصفحة104**).

أوّلا: المفهوم الحداثي لأسباب النّزول

يعتبر علم أسباب النزول في الفكر الحداثي من أهمّ العلوم الدالّة والكاشفة عن علاقة النص بالواقع وجدله معه، لأنّ هذا العلم في نظرهم يزوّدنا من خلال الحقائق التي يطرحها بمادة جديدة ترى النصّ استجابة للواقع، تأييدا أو رفضا، وتؤكّد علاقة الجدل والحوار بين النص والواقع(**أبو زيد،مفهوم النص،الصفحة97**)، و قد أكثر الفكر الحداثي من الاستشهاد بأسباب النّزول ودراستها بُغية ترويج أفكارهم ودسّ سمومهم، وحتى الاسم الذي عبّر به علماء القرآن عن أسباب النزول تجاوزه الفكر الحداثي في صورته التراثية، فها هو حسن حنفي يُعبّر عن هذا العلم في حقيقته على أنّه أسبقية الواقع على الفكر ومناداته له، كما أنّ ما عبّر عنه القدماء باسم النّاسخ والمنسوخ ليدلّ على أنّ الفكر يتحدّد طبقا لقدرات الواقع وبناء على متطلّباته.(**حنفي،التراث والتجديد موقفنا من التراث القديم،1992،الصفحة 16**).

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

وفي هذا الصّدد يقول نصرحامد:" إنّ معرفة أسباب النّزول ليست مجرّد ولع برصد الحقائق التّاريخية التي أحاطت بتشكّل النصّ، بل تستهدف هذه المعرفة فهم النصّ واستخراج دلالته"(**أبو زيد،مفهوم النص،الصفحة102**)، وكأنّ نصر حامد يريد أن يخلّص مفهوم سبب النزول من إطاره التّراثي، كاشفا أنّ سبب النزول يمكّن المفسّر من القراءة الصّحيحة للنص، ومن ثمّ يجعله مقاربا لاكتشاف الدّلالة.

يقول محمد سعيد العشماوي:" كلّ آيات القرآن نزلت على الأسباب، أي لأسباب تقتضيها سواء تضمّنت حكما شرعيا أم قاعدة أصولية أم نظما أخلاقية، ومن يقرأ القرآن بغير هذا الفهم لا يدرك حقيقة معناه، وما قصدت إليه آياته، ويضيف: " أسباب التّنزيل هي ما يمكن أن يقال عنه بلغة القانون المعاصرة –الأعمال التّحضيرية للقانون– ، وهي ألزم في تفسير آيات القرآن لسلامة فهمها وحسن تطبيقها من لزوم الأعمال لتفسير القانون.(**العشماوي،جوهر الاسلام،1996، الصفحة129**).

ويضيف قائلا:" ففيما عدا السور الأولى في بداية الدّعوة، لم تتنزّل آية إلاّ بسبب، فقد كانت تحدث الواقعة أو يسأل النبيّ رأيا أو حكما فتتنزل الآية على السّبب الذي طلبت من أجله.(**العشماوي،أصول الشريعة ،1996،الصفحة65**).

يقول حسن حنفي:" الوحي ذاته مجموعة من الآيات نزلت إبّان ثلاث وعشرين عاما، كلّ آية أو كلّ مجموعة من الآيات تمثّل حلاّ لموقف معيّن في الحياة اليومية لفرد أو لجماعة من الأفراد.. فهو ليس عطاء من الوحي بقدر ماهو فرض من الواقع وتأييد الوحي له، وهذا هو معنى أسباب النّزول".(**حنفي،التراث والتجديد موقفنا من التراث القديم،1992،الصفحة 134**).

يقول نصر حامد أبو زيد:"..فإنّنا نجعل المتلقّي–الإنسان–، بكلّ مايحيط به من واقع اجتماعي تاريخي، هو نقطة البدء والمعاد"(**أبو زيد،نقد الخطاب الديني،الصفحة200**)، إشارة منه على أنّ أسباب النّزول ليست سوى سياق اجتماعي للنّصوص، وليست الأحداث والوقائع التي نزلت منجمة بحسب الظّروف والوقائع العينية المباشرة.

ثانيا: علاقة أسباب النّزول بالتّاريخانية في الفكر احداثي

إنّ توظيف الحداثيين لأسباب النزول تحمل في طيّاتها أهدافا خبيثة تُبعد المسلم عن هدايات القرآن، وتُغري فكره عن انتهاء صلاحية أحكام القرآن وذلك بناءً على "المنهج التاريخاني" الذي يُفضي لإلصاق النص بالتّاريخ لتسويغ التخلي عنه الآن، ولعلّ محمد أركونكان سباقاً إلى هذا المنهج، ومن خلال قراءة

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

الحداثيين للقرآن الكريم قراءة مفتوحة باعتباره ظاهرة تاريخية وارتباط مدلوله بعصره، فنجد أركون يرى أنّ أسباب النّزول كانت نتاج نقاش دار في القرن الهجري الأوّل وهو ما أدّى إلى كتابة النّاسخ والمنسوخ، فيقول:" وهذا قد يوحي لنا بالفكرة التّالية: وهي أنّ المناقشات المعقّدة والمهلهلة التي دارت حول مسألة النّاسخ والمنسوخ كانت قد أصبحت محتومة، بعد تشكيل المصحف الذي يحتوي على كلّ الآيات المنسوخة، وعندئذ راحت أدبيات أسباب النّزول تزدهر وتنتشر ضمن الظّروف الثّقافية والسّياسية الخاصّة بالقرن الأوّل للهجرة".(**أركون،من الاجتهاد إلى نقد العقل الإسلامي،1991،الصفحة74**).

وكان ممّا وُصف به النصّ القرآني عند نصر حامد " الحدث القرآني" فيقول: " وإذا كان معنى قدم القرآن وأزلية الوحي يجمّد النّصوص الدّينية ويثبّت المعنى الدّيني، فإنّ معنى حدوث القرآن وتاريخية الوحي هو الذي يعيد للنّصوص حيويتها ويطلق المعنى الدّيني بالفهم والتّأويل من سجن اللّحظة التّاريخية إلى آفاق الإلتحام بهموم الجماعة البشرية في حركتها التّاريخية" (**أبو زيد،نقد الخطاب الديني،الصفحة202**)، وانظر كيف جعل أركون مرويات كعب الأحبار ووهب بن منبه أسبابا لنزول قصص الأنبياء، فيقول: " يوجد في التّراث الإسلامي شيء يدعى قصص الأنبياء وهي تحتوي على العديد من القصص، ونخصّ بالذّكر منها تلك التي جمعها يهوديان إعتنقا الإسلام وهما كعب الأحبار ووهب بن منبه، وهذه القصص العديدة تشكّل الخلفية الأسطورية التي تفسّر لنا سبب نزول كلّ آية من أيات القرآن" (**أركون،القرآن من التّفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الدّيني ،2005،الصفحة30**)، وعلى هذا القول المضطرب معنى السّبب عندهم ليس مرتبطا بوقت النّزول، بل هي أساطير وإسرائيليات مُتخيّلة.

ونأتي إلى شحرور الذي ينفي العلاقة بين القرآن وأسباب النّزول، فيقول:" أسباب النّزول هي للأحكام ولتفصيل الكتاب، وليس للقرآن أسباب نزول". (**شحرور، الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، الصفحة 92**)

من خلال ماسبق يتّضح أنّ مفهوم الحداثيين للتّاريخانية لايختلف في شيء عن مفهومها عند الغربيين وليس لهم في هذا الباب إلاّ النّقل، وكان همّهم الوحيد هو توظيف هذا المصطلح في البيئة الإسلامية، ولاشكّ أنّ الاجتهاد جار في علوم الإسلام الحادثة، أمّا توظيف التّاريخانية أو غيرها على الوحي فلا يجوز بأيّ صفة توظيفها فيما يتعلّق بالوحي الكريم متمثلا في القرآن الشريف والسنّة النبوية.

كما أن أسباب النزول لاتعني أن يلتمس الإنسان لكل آية سبباً؛ فإن القرآن لم يكن نزوله وقفاً على الحوادث والوقائع أو على السؤال والاستفسار، بل كان القرآن يتنزل ابتداءً بعقائد الإيمان، وواجبات

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

الإسلام،لذا فإن سبب النزول هو ما نزل قرآن بشأنه وقت وقوعه كحادثة أو سؤال، وباستقراء كتب التّفسير تُكذّب دعواهم أنّ لكل آية سبب نزول، وهاهو الإمام الزّرقاني يقول عن أسباب النّزول:"قسم نزل من الله ابتداء غير مرتبط بسبب من الأسباب الخاصة إنما هو لمحض هداية الخلق إلى الحق. وهو كثير ظاهر لا يحتاج إلى بحث ولا بيان. وقسم نزل مرتبطا بسبب من الأسباب الخاصة"(**الزرقاني،مناهل العرفان،2012 ، الجزء1 الصفحة106**).

كما تجلى إضطرابهم الشّديد حين تقرأ كتبهم، خاصّة في مسألة النّسخ متغافلين ارتباط هته المسألة بأسباب النّزول، واعتمادهم على حاكمية الواقع على النصّ الدّيني.

وقد جعل أركون القصص القرآني أحد أسباب النّزول، والحقيقة أنّ المفسّرين وظّفوا كما ذكرنا قصص وهب بن منبه وكعب الأحبار من باب ماورد في القصص القرآني من الإسرائيليات وليس لها أي علاقة بأسباب النّزول.

خاتمة:

أهم ما خلصت إليه هذه الدراسة تأثير العامل الأنثروبولوجي في قلب تصور الدين وعلومه عند الحداثيين حيث جرد عن قداسته،ما يؤكد عدم كفاءة الفكر الحداثي في فهمه لأصول العلم الشّرعي عموما وأسباب النزول خصوصا.

كما أن الفكر الحداثي لم يدرس أسباب النّزول أو أيّ قضية من قضايا علوم القرآن وغيرها لأسباب علمية مجرّدة وأهداف موضوعية تُفضي للوصول لحقائق عادلة، بل هو مجرّد غطاء يمرّرون به أفكارهم حول الدّين والوحي وأحكام الشّريعة مع العمل على إفضاء طابع المشروعية وتهيئة الأذهان لقبولها.

بالإضافة إلى أن مبدأ الحداثيين في فهمهم لأسباب النّزول هو الانفصام بين النصّ والواقع إذ يرون أنّ النص القرآني ينحصر تطبيقه على سبب وقوعه، وعليه تكون الأولوية لهذا الواقع على النصّ، إضافة إلى أنّ أسباب النزول بمعناها الحداثي إمكانية اختيار مانراه الأنسب لحلّ مشاكلنا من الوحي دون أن نلتزم بالأخذ بأحكامه كلّها.

إن كبار الحداثيين ممّن ادّعوا أنّهم أعدّوا مشروعا لدراسة التّراث العربي الإسلامي، واتّخذوا لأنفسهم منهجا يستمدّ قواعده من مناهج البحث في العلوم الإنسانية الغربية، هم في الحقيقة إنّما يدعون للتمرّد

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

والفوضى، وهم بذلك يتمرّدون على الدّين وعلى الآداب والأخلاق، لأنّ مابُني على قائم لاأساس فيه يُهدم، فلم يسلم عندهم لا المقصد ولا المنهج ولا النّتيجة.

قائمة المراجع:

1. أبو القاسم الزمخشري. (1407). الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل(الإصدار ط3). بيروت: دار الكتاب العربي.
2. أبو جعفر الطبري. (2000). جامع البيان في تأويل القرآن(الإصدار ط1). مؤسسة الرسالة.
3. جلال الدين السيوطي.(1974). الإتقان في علوم القرآن(الإصدار ط1). مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
4. حسن حنفي. (1992). التراث والتجديد، موقفنا من التراث القديم(الإصدار ط4).مصر: مؤسسة هنداوي سياي سي.
5. عبد الله العروي. (2005). مفهوم التاريخ الألفاظ والمذاهب المفاهيم والأصول (الإصدار ط4). الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي.
6. -كارل بوبر. (1992). بؤس الأيديولوجيا (الإصدار ط1). دار الساقي.
7. محمد أركون. (2005). القرآن من التّفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الدّيني (الإصدار ط1). بيروت: دار الطليعة.
8. محمد أركون.(1991). من الإجتهاد إلى نقد العقل الإسلامي (الإصدار ط1).لبنان: دار الساقي.
9. محمد الزُّرْقاني. مناهل العرفان في علوم القرآن(الإصدار ط3). سوريا: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه.
10. محمد سعيد العشماوي(1996). أصول الشريعة(الإصدار ط4).القاهرة: مكتبة مدبولي الصغير.
11. محمد سعيد العشماوي(1996). جوهر الإسلام(الإصدار ط4).القاهرة: مكتبة مدبولي الصغير.
12. محمد شحرور. الكتاب والقرآن قراءة معاصرة. دمشق: الأهالي للطباعة والنّشر.
13. محمد عابد الجابري. (2006). مدخل إلى القرآن الكريم (الإصدار ط1).
14. مرزوق العمري(2012). إشكالية تاريخية النص الديني (الإصدار ط1).
15. مناع بن خليل القطان.(2000). مباحث في علوم القرآن(الإصدار ط3). مكتبة المعارف للنشر والتوزيع.
16. نصر حامد أبو زيد. مفهوم النص دراسة في علوم القرآن (الإصدار ط1). المغرب: المركز لثقافي العربي.
17. نصر حامد أبو زيد.(1994). نقد الخطاب الديني (الإصدار ط2). سينا للنشر.
18. -نصر حامد أبو زيد.(1996). إشكاليات القراءة وآليات التأويل(الإصدار ط4). المغرب: المركز الثقافي العربي.